مُحاضرةٌ بعنوان

مقاصد الشريعة في القرآن الكريم

لِمعَالِي الشَّيْخِ الدُّكْتُورِ

سليمان الرحيلي

غَفَرَ اللّٰهُ لَهُ وَلِوَالِدَيْهِ وَلِمَشَايِخِهِ وَلِلْمُسْلِمِينَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ ولا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [آل عمران:١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كثيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾ [النساء:١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾ [الأحزاب:٧٠-٧١].

أَمَّا بَعْدُ؛

فَإِنَّ خَيْرَ الحَدِيْث كِتَابُ اللهِ، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَشَرُّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلُّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلُّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ.

ثُمَّ أيها الأخوة والأخوات؛ أُحييكم بتحية أهل الإسلام تحية أهل الجَنَّة السَّلَام، فَالسَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ.

أَهلاً وَسَهلاً بِاللَّذينَ أَودُّهُم ... وَأُحِبُّهُم في اللَهِ ذي الآلاءِ

أَهلاً بِقَومٍ صالِحينَ ذَوي تُقًى ... غُرِّ الوُجوهِ وَزَينِ كُلِّ مَلاءِ

أيُها الفضلاء؛ إنني أحمد الله عَزَّ وَجَلَّ وأشكره أولًا وآخرًا وظاهرًا وباطنًا، فهو المنعم المتفضل سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فوالله لولا الله مَا اهتدينا، والله لولا الله مَا التقينا، الله هدانا، والله يسر لنا، والله جمعنا، والله ألف بين قلوبنا، فالحمد لله حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه كما يُحب ربنا ويرضى، الحَمْدُ للهِ حَتَّىٰ يرضى، وَالحَمْدُ للهِ عند الرضا، وَالحَمْدُ للهِ بعد الرضا، وَالحَمْدُ للهِ على كل حال، ونعوذ بالله من حال أهل النَّار.

ثُمَّ أشكر حكومة دولة الإمارات العربية المتحدة عَلَىٰ تشجيعها للأعمال الخيرية والأنشطة الدعوية، ونحن نشهدها تتزايد بحمد الله عامًا بعد عام، وما هَذِه الجائزة الكريمة؟! جائزة رأس الخيمة للقرآن

الكريم وعلومه، إلَّا مثالٌ يُحتذى، وعمل به يُقتدى، فهي مسابقة تميزت بالمسابقات الجادة الخادمة لكتاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وبالأنشطة الدعوية العامة النافعة.

كما أشكر سمو الشيخ سعود بن صقر القاسمي حاكم الإمارة عضو المجلس الأعلى على رعايته لهذه الجائزة وتشجيعه للأعمال الخيرة والدعوية وتشجيعه للأخوة، كما أشكر القائمين على هَذِه الجائزة، وعلى رأسهم الشيخ صقر القاسمي، وفضيلة الشيخ أحمد الشحي، وجميع الأخوة.

كما أشكركم جميعًا على حضوركم، وتجشمكم عناء الحضور، وعلى صبركم، ولا شك أيُها الأخوة أن هذا الحضور إذا أخلص فيه الإنسان النية لله عَزَّ وَجَلَّ مِمَّا يُرتجى عند ربنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ففضله عظيم، وأجره عميم.

وقد رأى الإخوة الفضلاء أن يكون درسنا بعد العصر في دورة علمية مصغرة، ورأوا أن يكون الدرس هٰذَا العام في مقاصد الشريعة في القرآن الكريم، وهذا أيُها الأحبة موضوع كبير، فإن الله عَزَّ وَجَلَّ مَا شرع شَيْئًا إلَّا لحكمة، وما أمر بأمر إلَّا لحكمة، وما نهى عَنْ شيء إلَّا لحكمة، فالقرآن كله مقاصد من أوله إلى آخره، وإذا وجدت الأَمْر في القرآن، **فاعلم أن في ذلك حكمًا:**

- **منها**: أن الله عَزَّ وَجَلَّ يُحب هذا المأمور، فهذه حكمة راجعة إلى ربنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.
- **ومنها**: أن الله عَزَّ وَجَلَّ يُريد شرعًا، وأمرًا منك أيُها المكلف أن تُوقع هذا المأمور به.
- **ومنها**: أن في فعل هذا المأمور به مصلحة لك: مصلحة في الآخرة: وَهِيَ حصول الثواب المرتب على العمل، وأن يكون ذلك سببًا لفوزك بأعظم فوز، وَهُوَ دخول الجَنَّة، ومصلحة في الدنيا: منها: نصر الله عَزَّ وَجَلَّ وحفظه وعونه وتأييده لك في الدنيا، ومنها: دنيوية قد نعلمها وقد لا نعلمها.

إذًا يا عبد الله إذا وجدت أمرًا في القرآن، فاعلم إنَّمَا هو عَنْ حكمة كان، وإذا وجدت أن الله عَزَّ وَجَلَّ ينهاك في القرآن عَنْ شيء، فاعلم أن ذلك لحكمة.

- **هَذِه الحكمة منها:** حكمة تعود إِلَىٰ الله؛ وَهُوَ أن الله عَزَّ وَجَلَّ يكره هذا المنهي عنه ويأباه.
- **ومنها:** أن الله عَزَّ وَجَلَّ لا يُريد شرعًا أن يقع هذا المنهي عنه.
- **ومنها:** أن في فعل هذا المنهي عنه مفسدةً تقع عليك، وفي تركه استجابةً لنهي الله عَزَّ وَجَلَّ درءًا لهذه المفسدة عنك.

⇦ **وهذه المفسدة منها:** مَا هو في الآخرة، فتُدرأ عنك مفسدة السَّيِّئَة الَّتِي هِيَ سبب لدخول النار -وَالعِيَاذُ باللهِ-.

⇦ **ومنها:** مَا هو في الدنيا؛ من أنك إذا اجتنبت المنهيات أحبك الله ونصرك وأيدك وعوضك الله خيرًا عما تركت، عوضك خيرًا مما تركت عما تركت.

⇦ **ومنها:** مفاسد دنيوية قد نعلمها وقد لا نعلمها يدرأها الله عَزَّ وَجَلَّ عنك، ويحفظك منها باجتنابك للمنهي عنه.

✍ **إذًا يا عبد الله الله عَزَّ وَجَلَّ مَا شرع الشرع عبثًا، ولا أنزل القرآن عبثًا، وَإِنَّمَا لحكمة عظيمة.**

ولذا نقول أيُها الأخوة: إن مقاصد الشريعة في القرآن الكريم كثيرة جدًّا، وسنختار إِنْ شَاءَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ من هَذِه المقاصد مقاصد كبرى تعظم الحاجة إليها، وتعظم مصالحها وتعم، ولن أطيل في مقدمات المقاصد؛ لأن وقت الدورة ضيق، ولي بحث موجود حتى في الشبكات العنكبوتية في مبادئ المقاصد اسمه: **(الطريق القاصد إلى مبادئ علم المقاصد)** تكلمت عَنْ مقدمات المقاصد.

لكن لَا بُدَّ أن نُبين مَاذَا يُريد العلماء بمقاصد الشريعة؟ إذا قال العلماء مقاصد الشريعة مَاذَا يريدون؟

❐ **مقاصد الشريعة في أدق مَا قيل في معناها:** هِيَ الحكم الَّتِي أرادها الله عَزَّ وَجَلَّ من شرعه لتحقيق عبوديته وإصلاح العباد في المعاش والمعاد؛ الحُكم: هِيَ الغايات المقصودة من التشريع، وَهِيَ تعود في جملتها إلى جلب المصالح ودرء المفاسد، الحكم الَّتِي أرادها الله؛ أي أرادها شرعًا؛ **لأن الإرادة كما تعلمون نوعان:**

⇦ **إرادة كونية قدرية**؛ وهذه لا يخرج عنها شيء، وتتعلق بما يحب الله ومَا يُبغضه الله.

⇦ **وإرادة شرعية أمرية**؛ فهذه قد تقع وقد لا تقع، الله يُريد منك أن تُصلي إرادة شرعية أمرية أمرك بالصلاة، قد تُصلي أنت فتقع هَذِه الإرادة، فنعلم أن الله أرادها منك الآن شرعًا وقدرًا، وقد لا تصلي عياذًا بالله من هذَا، فتكون الإرادة الأمرية لم تقع؛ لأنك لم تُصلي، ونعلم أن الله لم يُرد كونًا وقدرًا منك أن تُصلي.

إذًا عندما يقول العلماء: أرادها الله؛ أي إرادة شرعية أمرية، وإن شئت فقل: إرادة شرعية طلبية، أرادها الله في هذا بيان أن الحكم الَّتِي في الشريعة أرادها الله من التشريع، وشرع الشرع من أجلها، وهذه

عقيدة أهل السُّنَّة وَالْجَمَاعَة: أن الله عَزَّ وَجَلَّ إنَّمَا شرع للحكم؛ لأَنَهُ حكيم عليم رؤوف سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فشرع الشرع كله للحكم.

وهذا خلاف مَا يقوله بعض المخالفين لأهل السُّنَّة وَالْجَمَاعَة في هذا الباب؛ حيث يقولون: إن حكم الواقعة عند التشريع لم يُردها الله من التشريع، وَإِنَّمَا شرع لمجرد المشيئة، أما هَذِه الحكم فوقعت عند التشريع، وليست بالتشريع، تقولون: حل لنا هذا اللغز.

أضرب لكم مثالًا يقرب لكم القضية: لو أن شخصًا رأى حية تسعى وعلم أنها حية وأَنَهَا مؤذية فأخذ عصا وذهب وضربها على رأسها وقتلها أزال ضررها أَوْ لم يزل ضررها؟ أزال ضررها بقصد وإرادة أَوْ بدون قصد وإرادة؟ بقصد وإرادة، علم وقدر وعمل، ولو أن إنسانًا جالسٌ فوق سطح بيته، فوجد حصى فأخذها فقذف بها من فوق السطح فوقعت على رأس حية فقتلتها أزال ضرر الحية أَوْ لم يُزلها؟ أزال، لكن أراد ذلك لم يرد، وقعت عند فعله ولم تقع بإرادته.

فأهل السُّنَّة وَالْجَمَاعَة يقولون: هَذِه الحكم الَّتِي نراها من التشريع الَّتِي لا يُنكرها أحد أرادها الله عند التشريع، عندما شرع أراد هذَا، شرع لهذا رحمةً منه وإحسانا وتفضلًا تكرمًا على عباده، أما المخالفون لهم فيقولون: لا، أمر لأَنَهُ أراد أن يأمر ليس لحكمة، ونهى لأَنَهُ أراد أن ينهى، طيب هَذِه الحكم الَّتِي نراها؟ يقولون: وقعت عند التشريع وليست بالتشريع، عندما شُرع هذا الأَمْر وقعت الحكمة، لكنها لم تكن مرادة عند التشريع.

وقول أهل السُّنَّة وَالْجَمَاعَة هو الَّذِي دلت عليه الأدلة وتدل عليه الحكمة الظاهرة الَّتِي أرادها الله، وَهذَا دل عليه القرآن: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥] من شرعه.

وأعظم الشرع وأغلب الشرع أمر ونهي؛ يعني أرادها الله من الأوامر ومن النواهي؛ لتحقيق عبوديته، **وانتبهوا لهذه النقطة يا إخوة:** لتحقيق عبوديته: هذا فيه إشارة وبيان للحكمة العظمى من التشريع، مَا هِيَ الحكمة العظمى من التشريع؟ أن نُحقق عبوديتنا لربنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لأن أصلًا خلقنا لهذا: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦]، فالحكمة من خلقنا أن نعبد الله، وأن نعبد الله بشرع الله.

إذًا الحكمة من الشرع أن نُحقق عبوديتنا لله، وهذه الحكمة يا إخوة كافية عند المؤمن ليمتثل، إذا علم المؤمن أن الحكمة العظمى من التشريع أن يُحقق عبوديته لله، فإن قلبه يلين لشرع الله ويمتثل لشرع الله.

إذا جاءنا الرجل، وَقَالَ: أنا أريد أن أعرف الحكمة تحريم الإسبال، أنا لا أمتثل حَتَّىٰ أعرف الحكمة، قلنا الحكمة: أن تُحقق عبوديتك لله، أن يظهر امتثالك لأمر الله، فهذا كاف في الامتثال، ومع ذلك ليست هِيَ الحكمة الوحيدة، لكنها الحكمة العظمى المهيمنة، وفي داخلها حكم ومصالح عظيمة لتحقيق عبوديته وإصلاح العباد، فلا صلاح للعباد إلَّا بشرع الله، لن تصلح الأَرْض إلَّا بشرع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

✍ **ونعني بالصلاح:** الصلاح الكامل العامة الشامل، قد ينجح بعض الناس في دنياهم بدون شرع، قد يتقدمون، قد يتطورون، ولكنهم من الداخل ينهزمون، قلوبهم تكون جوفاء، أما الصلاح العام الشامل فهو في الشَرعَ، وإصلاح العباد في المعاش والمعاد؛ يعني في والآخرة.

وهذا شيء مهم جدًّا يا إخوة: المقاصد والحكم ليست خاصة بالآخرة كما ظنه بعض الجهال، فجاءوا بالدروشة الَّتِي يُسمونها زهدًا وليست زهدًا، يتدروشون من غير شرع، يقولون: لأن المقصود عمارة الآخرة، أما الدنيا فلا قيمة لها، وهذا صحيح من حيث أن الدنيا لا قيمة لها، لكن الدنيا طريق ومزرعة للآخرة، فالشرع جاء بإصلاحها، وشرع لنا أن نلبس النظيف، وأن نتنظف، وأن نعمل في الدنيا من غير أن يغلب ذلك على عملنا للآخرة.

وبعض الناس وهذا كثير مَا تسمعونه اليوم ينظرون إلى الحكم في الدنيا، كل نظرهم إلى الحكم في الدنيا، إلى الحكم السياسية، إلى نظرة الجماعات الحزبية، فيمكن أن يترك بعض الشرع بحجة المصالح، تجد بعض السياسيين الَّذِينَ يقولون: أَنَّهُم ينتسبون إلى الجماعات الإسلامية يُمكن أن يُصافح المرأة الأجنبية، يقول: المصلحة، الحكمة، هذا نظر إلى مصلحة الدنيا، ولم ينظر إلى المصلحة الأخروية.

والتوازن الَّذِي دلت عليه الأدلة: أن الحكم تكون في الآخرة وتكون في الدنيا: ﴿وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٧﴾﴾ [الأعلى: ١٧]، هٰذَا معنى مقاصد الشريعة.

مَا علاقة مقاصد الشريعة بالقرآن الكريم؟ يقول العلماء: **علاقة مقاصد الشريعة بالقرآن الكريم من جهتين:**

- ✓ **الجهة الأُولى:** علاقة معرفة وبيان.
- ✓ **والجهة الثانية:** علاقة تفسير.

➢ **أما الجهة الأُوْلَى:** فأعظم طريق نعرف به ونعرف منه الحُكم: هو القرآن الكريم؛ لأَنَهُ كلام الله، فالله يُخبرنا عَنْ مراده، فإذا أردنا أن نعرف الحكم أول مَا ننظر إليه هو القرآن الكريم نبحث عَنْ الحكم فيه.

➢ **وأما الأَمْر الثَّانِي:** وَهُوَ علاقة التفسير؛ فإن معرفة المقاصد تُعين على فهم الآيات، إذا عرفت الحكمة من الآية، فإنك تفهم الآية فهمًا دقيقًا سليمًا، فإذا عرفت الحكمة وكانت المعرفة صحيحة سيكون فهمك وتدبرك للقرآن أعظم، فهي تُعين على تفسير كلام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

والقرآن فيه مقاصد للشريعة -كَمَا قُلْنَا- كثيرة جدًا، ونحن سنقف مع بعض المقاصد توضيحًا وتشويقًا؛ توضيحًا لهذه المقاصد؛ لأنا جميعًا نحتاج إليها، بل أمتنا كلها بحاجة إليها حاجة عظيمة في هذا الزمان، والأمة بحاجة إلى كلام الله في كل زمان، ولكن الآن في زمن تفجرت علينا فيه الشهوات، وعظمت أبوابها، وكثرت أسبابها، فالمؤمن بحاجة عظيمة إلى الرجوع إلى كلام الله عَزَّ وَجَلَّ رجوعًا صحيحًا حَتَّىٰ يتقوى في وجه هذا الطوفان العارم من الشهوات.

كما أننا في زمن الفتن العامة الطامة الَّذِي كثرت فيه الشبهات، وأصبح أصحاب الباطل يتفننون في إلقاء الشبهات على الناس، بل يستخدمون الخبراء الإعلاميين لإيصال الشبهات إلى الناس لا سيما في وسائل الإعلام الجديد، فنحن بحاجة عظيمة وماسة للرجوع إلى كتاب ربنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى رجوعًا صحيحًا بفهم سليم؛ ليعصمنا ربنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَنْ هَذِه الشبهات.

ونبدأ بأول مقصد نريد أن نقف عنده ونتأمل فيه: وَهُوَ كما أشرت آنفًا أعظم المقاصد علىٰ الإطلاق ألا وَهُوَ: مقصد التوحيد، أعظم المقاصد هو التوحيد؛ لأَنَهُ من أجله خُلقنا، ومن أجله أُرسل الرسل، ومن أجله شُرعت الشرائع، الله عَزَّ وَجَلَّ قَالَ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦]، وقال سُبْحَانَهُ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء: ٢٥]، ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴿١٦٢﴾ وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾﴾ [البقرة: ١٦١-١٦٣].

هَذِه الآيات الَّتِي كلها توحيد بدأت بنفي الألوهية عَنْ غير الله، وإثبات الألوهية لله، وخُتمت بهذا كَذَلِكَ، وذلك لعظيم شأن التوحيد وقد قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ

فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾﴾ [البقرة: ٢٥٦].

هذا الدين لا يحتاج إلى إكراه؛ لأَنَّهُ بين، لا يتركه إلَّا معاند مكابر، وَهُوَ دين الفطرة قد دلت الآيات الشرعية والكونية والنفسية على صحته، فلا يحتاج إلى إكراه، هذَا المعنى الصحيح لهذه الآية: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾؛ يعني لا يحتاج إلى إكراه، يدل على ذلك أن الله عَزَّ وَجَلَّ قَالَ: ﴿قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ فهو في غاية البيان، ثم بيَّن الله عَزَّ وَجَلَّ حقيقة التوحيد في هَذِه آية، وَهِيَ الكفر بالطاغوت والبراءة من الشرك وأهله، وإثبات الألوهية لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وقال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾ [آل عمران: ١٨]، فالله عَزَّ وَجَلَّ شهد على هَذِه الحقيقة العظمى الَّتِي من أجلها خُلق الإنسان، بل خُلقت الأكوان، أنه: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، والملائكة عباد الله المكرمون، وأولو العلم شهدوا بهذه الشهادة العظيمة.

ويقول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [غافر: ٦٠-٦٢]، هذا تقرير للتوحيد بأنواعه.

والآيات في هذا الباب كثيرة جدًّا، فالقرآن كله يُقرر التوحيد، هناك آيات نزلت قبل الهجرة تُقرر التوحيد فهي مكية، وآيات نزلت بعد الهجرة تُقرر التوحيد فهي مدنية، ولا زال النَّبِيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يدعو إلى التوحيد من أول كلمة قالها في الدعوة إِلَى هذا الدين إلى موته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأن التوحيد أعظم المقاصد، أعظم مَا تحتاجه الأمة التوحيد.

وبعض الناس لم يفهموا هَذِه القضية، ولا هَذِه الحقيقة، ويقولون: أنتم من ألف وأربعمائة سنة وزيادة تقولون التوحيد التوحيد، الناس تطوروا، والأمة تقدمت نُريد قراءة جديدة للدين، سُبْحَانَ اللَّهِ! أعظم مَا جاء في الدين هو توحيد رب العالمين، ولا يمكن أن يستغني الناس عَنْ الدعوة إِلَى التوحيد، ولهذا النَّبِيّ

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في آخر حياته كان يأمر بالتوحيد، ويُحذر من الشِّرْك: «لَعَنَ اللهُ اليَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ، اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ» يحذرُ مَا صنعوا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وإذا استقرأنا آيات القرآن الَّتِي جاءت بمقصد التوحيد وجدنا أنها تتعلق بثلاثة أمور:

- **الأَمْر الْأَوَّلُ:** أفعال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.
- **والأمر الْثَّانِي:** أفعال العباد.
- **والأمر الْثَّالِث:** الأسماء والصفات.

لو تأملنا الآيات الَّتِي تَلْونَاها، وذهبنا نقرأ آيات التوحيد في القرآن -وَهِيَ كثيرة جدًّا- لما وجدناها تخرج عَنْ تعلقها بهذه الأمور الثلاثة:

- **إما أفعال الله:** وَهٰذَا هو الَّذِي اصطلح العلماء على تسميته بتوحيد الربوبية.
- **وإما أفعال العباد:** وَهٰذَا الَّذِي اصطلح العلماء عَلَىٰ تسميته بتوحيد الألوهية.
- **وإما بالأسماء والصفات:** وَهٰذَا الَّذِي اصطلح العلماء عَلَىٰ تسميته بتوحيد الأسماء الصفات.

والمسلم يعلم بما دل عليه القرآن: أن التوحيد دين الأنبياء جميعًا، فالأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ من أولهم إِلَىٰ خاتمهم مُحَمَّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يدعون إلى التوحيد دعوةً واحدة، لا يختلفون في هٰذَا، وإن اختلفوا في شرائعهم والأحكام بحسب الزمان، الله عَزَّ وَجَلَّ قَالَ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، والمؤمنون يُؤمنون بجميع الرسل، لا يكفرون بواحد من الرسل، ويحبون جميع الرسل، ويحترمون جميع الرسل، ويعتقدون أن التوحيد دينهم الَّذِي اتفقوا عليه، وإن كان لكل منهم شرعةٌ ومنهاجًا كما أخبر الله عَزَّ وَجَلَّ.

النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «أَنَا أَوْلَىٰ النَّاسِ بِعِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ فِي الأُولَىٰ وَالآخِرَةِ» قَالُوا: كَيْفَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «الْأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ مِنْ عَلَّاتٍ، وَأُمَّهَاتُهُمْ شَتَّىٰ وَدِينُهُمْ وَاحِدٌ، وَلَيْسَ بَيْنَنَا نَبِيٌّ»، الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ أخوة من علات وأمهاتهم شتى؛ يعني الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ كالأخوة لأب من زوجات متعددات، أبوهم واحد وأمهاتهم متعددات شتى، فالأنبياء كما فسر النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذلك: دينهم واحد وَهُوَ التوحيد، وإن كانت شرائعهم فيها اختلاف، قَالَ: «وَلَيْسَ بَيْنَنَا نَبِيٌّ»؛ يعني ليس بين عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ومحمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نبي.

فهذا يدل يا إخوة على أن مقصد التوحيد مقصد مستمر منذ أن خلق الله الإنسان ليكون خليفة في الأَرْض إِلَىٰ أن يرث الله الأَرْض ومن عليها، يأتي بعض الناس كما قلت يقولون: أنتم تدعون إلى التوحيد من مئات السنين، نقول: لا، التوحيد يُدعى لَهُ منذ خلق الإنسان، فالإنسان خُلق للتوحيد، وخلق عَلَىٰ التوحيد، وأُنزل آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ وزوجه حواء إلى الأَرْض بالتوحيد، وأول ما عرفت الأَرْض التوحيد، وأشرف مَا عرفت التوحيد، وستبقى الدعوة إلى التوحيد إِلَىٰ أن يرث الله الأَرْض ومن عليها.

فَلَا بُدَّ للمسلم من أن يعرف هذا المقصد، ويُعظم هذا المقصد، ويُحقق هذا المقصد.

أما المقصد الثَّانِي من مقاصد القرآن العظمى الكبرى فهو: مقصد العدل: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾﴾ [النساء: ٥٨].

فالله عَزَّ وَجَلَّ أمر بالعدل أمرًا عامًا، ولذلك قَالَ الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾﴾ [النحل: ٩٠]، وقال سُبْحَانَهُ: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾ [المائدة: ٨]، فالله عَزَّ وَجَلَّ أمر بالعدل.

فمن مقاصد الشريعة في القرآن الكريم: العدل أن نُقيم العدل، وهذا الأَمْر أيُّها الأخوة عام، العدل بوضع الشيء في موضعه الَّذِي يستحقه، وإعطاء صاحب الحق حقه، ليس العدل يا إخوة في التسوية والمساواة، وَإِنَّمَا العدل وضع الشيء في موضعه، وإعطاء كل صاحب حقه بما يستحقه.

وأعطيكم مثالًا يُقرب لكم الفكرة: إنسان عنده أولاد وواجب عليه أن يعدل بين أولاده، النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «اعْدِلُوا بَيْنَ أَوْلَادِكُمْ اعْدِلُوا بَيْنَ أَبْنَائِكُمْ اعْدِلُوا بَيْنَ أَبْنَائِكُمْ» فواجب عليه أن يعدل بين أبنائه، طيب عنده ابن في الجامعة وعنده ابن في الثانوية، وعنده ابن في الابتدائية، وعنده ابن لم يدخل المدرسة هل العدل أن يُسوي بينهم في الإعطاء أَوْ العدل أن يُعطيهم جميعًا ويُعطي كل واحد حقه بما يستحقه؟

يعني مثلًا: هل العدل أن يُعطي الَّذِي قبل الابتدائية خمس دراهم، وَالَّذِي في الابتدائية خمس دراهم، وَالَّذِي في الثانوية خمسة دراهم، وَالَّذِي في الجامعة خمس دراهم، هذا ليس عدلًا، العدل: أن يُعطي الَّذِي في الابتدائية مَا يستحقه، ويُعطي الَّذِي في الثانوية مَا يستحقه، ويُعطي الَّذِي في الجامعة ما يستحقه.

عنده ابنان أحدهما مَا شاء الله زاده الله بسطة في الجسم، والآخر نحيل، هذَا الَّذِي زاده الله بسطة في الجسم إذا أُعطى ثلاث أرغفة يعني يشبع، وَهذَا النحيل نصف رغيف ويكتفي، نقول: إذا أعطيت هذا نصف رغيف وأعطيت وهذا نصف رغيف هذا ليس عدلًا، أَوْ نقول: هذا أعطي ثلاثة أرغفة، وهذا أُعطي ثلاثة أرغفة ولو كانت تزيد عَنْ حاجته، هذا ليس عدلًا، العدل أن يُسوي بينهما في حقيقة الإعطاء، ويُعطي هذا حقه بما يستحقه وهذا حقه بما يستحق، وَهذَا هو العدل الَّذِي جاء به القرآن، وَالَّذِي هو مقصد من مقاصد الشريعة في كتاب ربنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

العدل مطلوب من الإنسان في عبادته لله عَزَّ وَجَلَّ بتحقيق التوحيد، وَهُوَ المقصد الأول الَّذِي تكلمنا عنه، العدل مطلوب من الإنسان في معاملته في حياته مع الناس، في معاملته مع زوجته أَوْ زوجاته إن كان معددًا، مع أبنائه، مع جيرانه، مع المسلم ومع الكافر، والعدل في مقصد القرآن حق وليس هبة يتغير بالرضا والغضب، أَوْ يتأثر بالحب والبغض، لا، العدل حق ينبني عَلَىٰ الحق، فإذا غضبنا من إنسان لا نظلمه، ولو تعاملنا مع كافر لا نظلمه؛ لأن العدل واجب، ومن مقاصد القرآن العظيمة.

وضد العدل يُخالف مقصود الشارع، وَهُوَ الظلم، والله عَزَّ وَجَلَّ قد نهى عنه ونَفَّر منه: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [آل عمران: ٥٧] سُبْحَانَ اللَّهِ! المؤمن إذا سمع هذا في القرآن: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [آل عمران: ٥٧]، كيف يطيب قلبه أن يكون ظالمًا؟ الرجل المتزوج بزوجتين ويظلم إحداهما؛ لأَنَّهَا كبيرة مثلًا، كيف يطيب قلبه أن ينام وَهُوَ يعلم أن الله لا يحب الظالمين، وأنه ظالم لَهُ نصيب من هذَا، وإن كان أصل الآية في الكفار، عندما يقول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥٨﴾﴾ [البقرة: ٢٥٨]، أمور تُنفر المسلم من الظلم.

النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «اتَّقُوا الظُّلْمَ»، مَا قَالَ: اتركوا، اتقوا؛ اجعلوا بينكم وبينه وقاية، اجعلوا بينكم وبينه حاجزًا، «فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»، وَالنَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بيَّن لنا العدل بذكر ضده بيانًا عجيبًا، فَقَالَ: «انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا»، فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَنْصُرُهُ إِذَا كَانَ

مَظْلُومًا، هٰذَا واضح، فَكَيْفَ أَنْصُرُهُ إِذَا كَانَ ظَالِمًا؟ قَالَ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «تَمْنَعُهُ مِنَ الظُّلْمِ فَإِنَّ ذَلِكَ نَصْرُهُ».

فالمؤمن لا يكتفي بالعدل في نفسه، بل يأمر بالعدل كما أمر الله، وهذا من مقاصد القرآن، عندما يقول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾ [النحل: ٩٠]، هٰذَا يتضمن الأَمْر بأن نأمر بالعدل، فإذا رأينا ظالمًا أمرناه بالعدل، والمؤمن يسعى لمنع الظلم، فإذا رأى أخًا له يُريد أن يظلم وعظه وذكره ومنعه من الظلم؛ ليحقق مقصود الشرع من العدل، هٰذَا المقصد العظيم في كتاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وأعظم الظلم هو المقابل لأعظم العدل، أعظم العدل على الإطلاق التوحيد، وأعظم الظلم هو الشِّرْك: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ [لقمان: ١٣]، فهذا أعظم الظلم، وقد دلت الآيات عَلَىٰ هَذِه القضية العظيمة كما قلنا الله عَزَّ وَجَلَّ يقول: ﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٦﴾﴾ [يونس: ١٠٦].

وإذا تأملت يا أخي وجدت أن أكثر الفساد الَّذِي يقع في الأَرْض من الظلم، وأن أعظم المصالح الَّتِي تتحقق من العدل، ولهذا هذا المقصد من أعظم مقاصد الشريعة في القرآن، ولذلك يجب علينا أن نفهمه، وأن نُحَكِّمه، وأن نعمل به؛ نعمل به في جميع أمورنا، وهذا يحتاج إِلَىٰ جهاد، والمجاهد من جاهد نفسه في سبيل الله تَعَالَىٰ، فنحتاج إلى أن نُجاهد ونُراجع أنفسنا في هٰذَا المقصد العظيم.

أما المقصد الثَّالِث من مقاصد الشريعة في القرآن الكريم: فهو مقصد الإحسان؛ الله عَزَّ وَجَلَّ أمر بالإحسان في كتابه الكريم: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ﴾ [النحل: ٩٠]، وهذا أمر عام.

والإحسان: العمل بالحسنى، وإيصال الحسنى إلى الغير؛ أن تُوصل الشيء الحسن إِلَىٰ الغير، أن تتعامل مع الغير بالخير، الإحسان أن تتعامل مع الغير بالخير، تُوصل الإحسان أَوْ توصل الحسنى إلى غيرك.

ومقصد الإحسان في القرآن عام؛ لأن الله قَالَ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ [النحل: ٩٠]، فشمل كل إحسان، ولذلك قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ كَتَبَ الإِحْسَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ»؛ يعني في كل شيء.

فهذا يشمل الإحسان في العبادة؛ إذا عبدت الله فتُحسن عبادتك، تُصلي صلاة المحسن المقبل على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وليست صلاة الغافل الَّذِي يدري منها شيئين فَقَطْ: اللَّهُ أَكْبَرُ، السلام عليكم، لا تحلو لَهُ الدنيا، ولا تتزخرف لَهُ إلَّا في الصلاة، إذا قَالَ: اللَّهُ أَكْبَرُ تزخرفت الدنيا، ربما يسمع من الإمام إن كانت الصلاة جهرية: الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ، ثم يسرح سمع الناس يقولون: آمين، قَالَ: آمين، ويُصلي صلاة فيها الغفلة وليس فيها الإحسان، لا الإحسان في العبادة.

والإحسان في المعاملة مع الناس كافة، والإحسان حتى معاملة الحيوان، فالإحسان يا إخوة باب أجر يغفل عنه كثير من الناس، أن تتعامل بالإحسان هٰذِه عبادة يا إخوة، هَذِه قربة، هذا ثواب، أن تُحسن وظيفتك؛ أُسندت لك وظيفة، فتحسن هَذِه الوظيفة لله فيستوي عندك السر والعلن فيها، يستوي عندك أن يكون هناك مراقب أَوْ لا يكون، تُصبح قربة، تُؤجر عليها.

النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «إِنَّ اللهَ كَتَبَ الإِحْسَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ، فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا القِتْلَةَ، وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذِّبْحَةَ، وَلْيُحِدَّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ، وَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ»، حَتَّىٰ في الذبح أُمرنا بالإحسان، والإحسان يكون بالآلة ويكون بإراحة الذبيحة.

ولذلك جاءت الأدلة دالة على أن الإنسان يُؤجر على كل إحسان يُحسنه، قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «بَيْنَمَا كَلْبٌ يُطِيفُ بِرَكِيَّةٍ»، والركية هي البئر سواء كانت مطوية أَوْ لم تكن مطوية، «بَيْنَمَا كَلْبٌ يُطِيفُ بِرَكِيَّةٍ، كَادَ يَقْتُلُهُ العَطَشُ، إِذْ رَأَتْهُ بَغِيٌّ مِنْ بَغَايَا بَنِي إِسْرَائِيلَ» يعني رأته زانية من الزواني من بني إسرائيل، «فَنَزَعَتْ مُوقَهَا» مثل الخف، «فَسَقَتْهُ فَغُفِرَ لَهَا بِهِ».

وَقَالَ النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «بَيْنَمَا رَجُلٌ بِطَرِيقٍ، اشْتَدَّ عَلَيْهِ العَطَشُ، فَوَجَدَ بِئْرًا، فَنَزَلَ فِيهَا، فَشَرِبَ ثُمَّ خَرَجَ، فَإِذَا كَلْبٌ يَلْهَثُ، يَأْكُلُ الثَّرَىٰ مِنَ العَطَشِ، فَقَالَ الرَّجُلُ: لَقَدْ بَلَغَ هَذَا الكَلْبَ مِنَ العَطَشِ مِثْلُ الَّذِي كَانَ بَلَغَ مِنِّي، فَنَزَلَ البِئْرَ فَمَلَأَ خُفَّهُ مَاءً، فَسَقَىٰ الكَلْبَ، فَشَكَرَ اللهُ لَهُ فَغَفَرَ لَهُ» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَإِنَّ لَنَا فِي البَهَائِمِ لَأَجْرًا؟ يعني إِذَا أحسنا لها يكون لنا أجر، قَالَ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فِي كُلِّ ذَاتِ كَبِدٍ رَطْبَةٍ أَجْرٌ».

وقد ذكر ابن عُمَر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّهُم كانوا فِي سَفَرٍ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَنَزَلُوا فَانْطَلَقَ النَّبِيّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِحَاجَتِهِ، فَإِذَا حُمَرَةٌ مَعَهَا فَرْخَانِ؛ طائر مَعَهَا فَرْخَانِ، قَالَ: فَأَخَذْنَا

فَرْخَيْهَا، فَأَخَذَتْ الْحُمَرَةُ فَجَعَلَتْ تَفْرِشُ، معنى تفرش: كانت تطير حول النَّبِيّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، تدور حول النَّبِيّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكان النَّبِيّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذهب يقضي حاجته، فهي تدور حوله، فَجَاءَ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: «مَنْ فَجَعَ هَذِهِ بِوَلَدِهَا؟ رُدُّوا عَلَيْهَا وَلَدَهَا»، فأمر النَّبِيّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالإحسان حَتَّىٰ للحيوان.

✍ **وهذا يدلنا يا إخوة:** عَلَىٰ أن الإحسان المراد في القرآن هو الإحسان في كل شيء: فيما أُمرنا به شرعًا، وفيما نُهينا عنه شرعًا، وفي العادات، وفي المعاملات، حَتَّىٰ في معاملة الحيوان.

من المقاصد الكبرى للشريعة في القرآن: مقصد الصلة فالله عَزَّ وَجَلَّ يُريد منا أن نصل مَا أمر به أن يُوصل، فمن أعظم مقاصد الشريعة في القرآن مقصد الصلة، ولذلك مدح الله المؤمنين بالصلة، فَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴿٢١﴾﴾ [الرعد: ٢١]، وهذا الاقتران يدل على أن خشية الله والخوف من عقاب الله تجعل العبد يحرص عَلَىٰ صلة من أمر الله بوصلهم، وما أمر الله بوصله.

وبيَّن الله عَزَّ وَجَلَّ أن ترك الصلة من صفات الفاسقين، فَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ ﴿٢٦﴾ الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [البقرة: ٢٦-٢٧]، فَالَّذِي يقطع مَا أمر الله بصلته من الفاسقين ومن الخاسرين، فهو يجمع بين الفسق والخسران في الدنيا والآخرة، فما ربح قاطع، وما خسر واصل أبدًا، هٰذَا الَّذِي دل عليه القرآن الكريم.

والله عَزَّ وَجَلَّ يقول: ﴿وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٢٥﴾﴾ [الرعد: ٢٥]، فالدين دين الصلة، فمن أعظم مقاصد الشريعة الصلة.

ومن أعظم الصلة: صلة الوالدين، فهي من آكد مَا أمر به من الوصل: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء: ٢٣]، هَذِه صلة بإحسان؛ ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾؛ وَهٰذَا يُعطي آفاقًا كبيرةً لصلة الوالدين، ليست صلة الوالدين خاصة بالصلة الحسية: بأن تزورهما فَقَطْ، بل هَذِه صلة وَنِعِّمَ هِيَ، ولكنها تشمل الصلة المعنوية كالدعاء ودعوة الوالدين للخير، وتشمل الصلة بالمال، وتشمل الصلة

بالزيارة، وتشمل الصلة بإكرام صديقهما، ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء: ٢٣]، وهذه الصلة لا تنقطع، ليس لها أمد، بل كلما تقدم العمر كلما عظمت، كلما تقدم عُمَر الوالد كلما عظمت هَذِه الصلة.

﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ﴾ [الإسراء: ٢٣]؛ صلة بالكلام الطيب، ﴿وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ۝٢٣ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ﴾ [الإسراء: ٢٣-٢٤] تذلل عندهما تواضع مهما بلغت من المناصب، ومهما كثرت عندك الأموال، اخفض لهما جناح الذل بتذلل، ﴿وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ۝٢٤ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا ۝٢٥﴾ [الإسراء: ٢٤-٢٥].

ثم جاءت الصلة الثانية بعد صلة الوالدين: ﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ۝٢٦﴾ [الإسراء: ٢٦]، والله عَزَّ وَجَلَّ قَالَ: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى﴾ [النساء: ٣٦]، هذِه كلها صلة.

﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ۝٣٦﴾ [النساء: ٣٦]؛ انظر وتأمل وتدبر في هَذِه الآية كيف جمعت هذا المقصد العظيم، وَهُوَ مقصد الصلة.

فأمرك الله عَزَّ وَجَلَّ في أولها: بأعظم حق، وَهُوَ حقه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَهُوَ: أن تعبد الله عَزَّ وَجَلَّ ولا تشرك به شَيْئًا، ثم أوصى بصلة الوالدين بالإحسان إليهما، والوالدان فضلهما عليك عظيم فحقهما في الصلة عظيم، وأمر بصلة ذي القربى بالإحسان إليهم، صلة الأرحام، وصلة اليتامى وهم من الضعفة، فاليتيم فقد والده الَّذِي يقوم بمصالحه وَهُوَ صغير، والمساكين؛ صلة المساكين بسد حاجتهم، والمساكين: هم المحاويج الَّذِينَ لا يجدون مَا يكفيهم، وصلتهم تكون بسد حاجتهم.

والجار ذي القربى والجار الجنب؛ الجار ذي القربى: هو الجار القريب الَّذِي تربطك به قرابة، فيجتمع فيه صلة القربى وصلة الجوار، والجار الجنب: هو الجار البعيد الَّذِي ليس قريبًا لك فتكون لا يكون لَهُ حق صلة الجوار، وبعض أهل العلم قَالَ: الجار ذي القربى: المسلم، والجار الجنب: الكافر، والمعنى يحتمل الجميع.

فالجار الكافر يُوصل ويُحسن إليه، ولذلك ثبت أن النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عاد يهوديًا كان جارًا لَهُ، عاده في مرضه، ودعاه إلى الإسلام، وكان ابن عُمَر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا لَهُ جارٌ يهودي فإذا ذبح شاة وقسمها أهله يأتي لأهله ويقول: أهديتم إلى جارنا اليهودي، يتفقد هذَا؛ لأَنَهُ مظنة النسيان.

وبعض أهل العلم قَالَ: الجار ذي القربى: الجار في الحضر، والجار الجنب: الجار في السفر، رفيقك في السفر هو الجار الجنب، وبعض أهل العلم قَالَ: الجار ذي القربى: الجار من أقاربك، والجار الجنب: الزوجة؛ لأَنَهَا تأتي من بيوت بعيدة، ولا مانع من إرادة الجميع، فإن هذا الاختلاف اختلاف تنوع، وليس اختلاف تضاد.

وصلة الأقارب من مقاصد القرآن الكريم، ولذلك تركها يُضاد مقاصد الشريعة، جاء رجل إِلَىٰ النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ لِي قَرَابَةً أَصِلُهُمْ وَيَقْطَعُونِي، وَأُحْسِنُ إِلَيْهِمْ وَيُسِيئُونَ إِلَيَّ، ويَجْهَلُونَ عَلَيَّ وَأَحْلُمُ عَنْهُمْ، فَقَالَ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنْ كَانَ كَمَا تَقُولُ، فَكَأَنَّمَا تُسِفُّهُمْ الْمَلَّ»؛ يعني كأنما تُسفهم الرماد الساخن، «وَلَا يَزَالُ مَعَكَ مِنَ اللهِ ظَهِيرٌ عَلَيْهِمْ مَا دُمْتَ عَلَىٰ ذَلِكَ».

وَقَالَ النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَيْسَ الوَاصِلُ بِالمُكَافِئِ» إِذَا وصله قريبه وصل، «وَلَكِنَّ الوَاصِلَ الَّذِي إِذَا انْقَطَعَتْ رَحِمُهُ وَصَلَهَا»؛ ولذلك قال العلماء: **الناس في مقصد الصلة ثلاثة:**

- واصل.
- ومكافئ.
- وقاطع.

➢ **أما الواصل:** فهو الَّذِي يصل رحمه قطعت أَوْ وصلت، يصلها فهو كما يقول العلماء: يتفضل ولا يُتفضل عليه، هو الَّذِي يصل.

➢ **وأما المكافئ:** فهو الَّذِي يصل من وصله فَقَطْ، فهذه مكافأة، يُؤجر على الصلة إن نوى بها وجه الله، ويأثم للقطيعة؛ لأَنَهُ يقطع من لا يصله.

➢ **والقاطع:** هو الَّذِي يقطع رحمه وصلت أَوْ قطعت، بل أعوذ بالله في هذا الزمان ظهرت أشكال عجيبة في الناس، بعض الناس مثلًا يذهب إلى ابن عمه فيطرق عليه الباب يُريد أن يصله، قَالَ: لماذا

تأتيني؟ لا تقرب عند بابي، لا أريد أن أراك يا أخي من غير سبب شرعي، لكنها قسوة في القلوب وانتكاس للفطر، وهذا يُضاد مقاصد الشريعة.

وتحقيق هذَا المقصد وصل من أمر الله بوصله بمختلف أنواع الوصل سببٌ لخيرات والآخرة؛ لأن فيه إرضاء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: «مَنْ أَرَاد أَنْ يُنْسَأَ لَهُ فِي أَجَلِهِ، وَيُبْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ، فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ»، ولذلك قَالَ ابن عُمَر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: **"من اتقى ربه ووصل رحمه نُسِّأ في أجله وثُري ماله، وأحبه أهله"** الَّذِي يصل يُبسط لَهُ في أجله ويُنسأ لَهُ في أجله، ويُؤخر لَهُ في أجله.

والمقصود هنا: مَا عند الملائكة، فيكون في أيدي الملائكة أنه إذا وصل رحمه يكون عمره، وإذا لم يصل رحمه يكون عمره كذا، وأجله معلوم عند الله، معلوم عند الله أنه يصل أَوْ لا يصل أن عمره كذا، لكن عند الملائكة أنه إن وصل يكون عمره كذا، وإن لم يصل يكن عمره كذا.

ويُبسط لَهُ في رزقه؛ يُوسع عليه في رزقه، ويُحبه أهله، فمن أسباب محبة الناس أن يكون وصولًا، الوصول يُحبه حَتَّىٰ مَنْ لَم يكن من أقاربه، والقاطع يُبغضه حَتَّىٰ من كان بعيدًا عنه إذا علم أنه قاطع، فهذا المقصد من مقاصد الشريعة الكبرى الَّتِي تجلب الخيرات وتمنع الشرور.

ولذلك جاء عَنْ أبي بَكَرَةَ رَضْيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُول اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا مِنْ ذَنْبٍ أَحْرَىٰ» يعني أحق، «أَنْ يُعَجِّلَ اللهُ لِصَاحِبِهِ الْعُقُوبَةَ فِي الدُّنْيَا» فتلحقه الشرور في الدنيا، «مَعَ مَا يَدَّخِرُ لَهُ فِي الْآخِرَةِ -من عقوبة- مِنْ قَطِيعَةِ الْرَحِمِ، وَالْبَغْيِ».

وهذه الصلة كما ذكرنا يا إخوة حَتَّىٰ للوالدين الكافرين، وسبحان الله أنا أتدبر في هذا وأقول: إذا كان الله عَزَّ وَجَلَّ أمر الولد الَّذِي يدعوه والده إلى الشرك به بأن يُصاحبه في الدنيا بالمعروف، ولا يُطيعه فيما يدعو إليه، فكيف بأبٍ يُربي عَلَىٰ الدين؟! كيف بأبٍ مَا تعلمت الصلاة إلَّا منه؟! كيف بأبٍ يحرص على أن تذهب إلى المسجد؟! كيف بأبٍ يحرص على تربيتك وعلى رعايتك الحسية والمعنوية؟! لا شك أن الأَمْر عظيم.

فإذا كان ربنا يقول: ﴿وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ [لقمان: ١٥]، فكيف بمن يدعوك إلى التوحيد؟! كيف بمن يُربيك على الدين؟! كيف بمن يرعاك رعاية شرعية صحيحة؟!

ولذلك جاء عَنْ أسماء بنت أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنها قَالَتْ: قَدِمَتْ عَلَيَّ أُمِّي وَهِيَ مُشْرِكَةٌ فِي عَهْدِ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَاسْتَفْتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قُلْتُ: وَهِيَ رَاغِبَةٌ؛ يعني أني أطمع في إسلامها، أَفَأَصِلُ أُمِّي؟ يعني أَصِلُها وَهِيَ مُشْرِكَة، فَقَالَ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «صِلِي أُمَّكِ».

بل إذا كان لنا جارٌ ذمي من اليهود أَوْ النصارى أَوْ مستأمن أَوْ جار ذو عهد، فإنا نُبغضه بقلوبنا، ونصله بالإحسان إليه، بالإهداء، وإن أهدى إلينا قبلنا هديته كما فعل النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لنظهر لَهُ حسن الإسلام، وهذه من الصلة المشروعة، وهذا مقصد عظيم للأسف بدأ كثير من المسلمين يُفرطون فيه، فيبلغنا أن إخوة في عمارة واحدة يعيشون في عمارة واحدة أَوْ متجاورين في بيوت متجاورة لا يرى أحدهم الآخر الأيام الطوال، ربما ذهب إلى أصدقائه في مكان بعيد يسهر معهم، لا يُكلف نفسه أن يمر على باب أخيه ليطرق عليه ويُسلم عليه، وهذا خلاف مقصود الشريعة.

ديننا دين الصلة، بل الإسلام حرم أن يهجر المسلم أخاه فوق ثلاث بسبب أمر دنيوي، حرم على المسلمين أن يتهاجرا وأن يلتقي فيعرض هذا ويعرض هذا فوق ثلاث، راعى الإسلام أن الإنسان قد يغضب، فأعطاه ثلاثة أيام، ثُمَّ بعد ذلك يصبح الهجر والقطيعة إثمًا، وخيرهم الَّذِي يبدأ بالسلام، فالإسلام دين الصلة.

وما أحوجنا نحن طلاب العلم في هذا الزمان؛ لأن نفهم أن هذا من مقصود الشارع، وأن نتعلمه وأن نُعلمه وأن ننشره بين الناس؛ لنحقق مقصود ربنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ونحقق الخير لأنفسنا ولأمتنا.

لعلنا نقف عند هذا الموطن من أجل أن يتوضأ من أراد الوضوء من الإخوة، وَإِنْ شَاءَ اللهُ نعود بعد الصلاة للمحاضرة، وسنعمل على أن نترك وقتًا مناسبًا للأسئلة؛ لأن الإخوة يرغبون في الأسئلة، فَإِنْ شَاءَ اللهُ سنأخذ جزءًا من الوقت بعد المغرب للكلام عَنْ حلاوة القرآن، وما أحوجنا لهذا، ثُمَّ نترك وقتًا إِنْ شَاءَ اللهُ لنُجيب عَلَىٰ أسئلة الإخوة الَّتِي وردت الآن، أَوْ الَّتِي ترد في المحاضرة إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَىٰ، واللهُ تَعَالَىٰ أَعْلَى وَأَعْلَمُ.

وَصَلَّى اللهُ عَلَى نَبِيِّنَا وَسَلَّمَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحَمْدُ للهِ حمدًا طيبًا كثيرًا مباركًا فيه كما يحب ربنا ويرضىٰ، الحَمْدُ للهِ حَتَّىٰ يرضىٰ وَالحَمْدُ للهِ عند الرضا، وَالحَمْدُ للهِ بعد الرضا، وَالحَمْدُ للهِ عَلَىٰ كل حال، ونعوذ بالله من حال أهل النَّار، وَأَشْهَدُ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ الواحد القهار، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ النَّبِيّ المختار، صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعَلَىٰ آله وأصحابه الأطهار الخيار.

أَمَّا بَعْدُ؛

فمعاشر الإخوة والأخوات أحييكم بتحية أهل الإسلام فالسَّلامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ.

أَيُّهَا الإخوة لا زال درسنا عن مقاصد الشريعة في القرآن الكريم.

نبحث عن الحِكم الكبرى، والمصالح العُظمى الَّتِي أراد الله عَزَّ وَجَلَّ أن تقع منا بتشريعه بما ذَكَرَ في كلامه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وقد قدمت بالأمس: أن مقاصد الشريعة في القرآن الكريم موضوعٌ ذو مكانة كبرى، وأنه كبير جدًا، فإن القرآن كله مقاصد، فما من آيةٍ إِلَّا وفيها حِكمة.

لكننا في هٰذِه الدورة انتقينا المقاصد الكبرى، وانتقينا من هٰذِه المقاصد ما نرى أن الحاجة في زمننا إليه أمس بما يتناسب مع الوقت، وَإِلَّا في الحقيقة: فكل مقصودٍ من هٰذِه المقاصد لو أردنا أن نُقيم له دورةً كاملة لاستطعنا ذلك، ولكننا نعرض في هٰذِه الدورة هٰذِه المقاصد بما يُحقِق المقصود، ويوصل ما نريد إيصاله.

تكلمنا في درس الأمس: عن عددٍ من مقاصد الشريعة الكبرىٰ في القرآن الكريم، ونواصل اليوم الحديث عن بعضها.

فمن تلك المقاصد الكبرى الَّتِي تحقق المصالح العُظمى ويَحصُل بها الخير ويندفع بها الشر: مقصد حفظ الأنفس، والمقصود بالأنفس: الأنفس الَّتِي حرمها الله فعُصِمت بالإيمان، أَوْ عُصِمت بالأمان، فالنفس المعصومة بالإيمان، ولم يرتكب صاحبها ما يقتضي قلته فإنها محفوظةٍ في الإسلام.

والنفس المحفوظة بالأمان؛ يعني: نفس الكافر الَّذِي له أمانٌ لا يجوز قتلها، بل يجب حفظها من مقاصد الشريعة، الله عَزَّ وَجَلَّ يقول مقرِرًا مبينًا ومعلمًا هٰذَا الحُكم العظيم الشريف، وَهٰذَا المقصد العظيم: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣].

يا إخوة كل الصفات الَّتِي ذَكَرَ أهل العِلم أنها تدل عَلَىٰ أن الفعل كبيرةٌ من كبائر الذنوب جمعها الله عَزَّ وَجَلَّ في هٰذِه الآية لَمن يقتل مؤمنًا متعمدًا، ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا﴾ [النساء: ٩٣]، قَالَ العلماء: الخلود هنا خلود أمد؛ لأن الخلود إِذَا ورد في القرآن؛ أعني: الخلود في النَّار نوعان: خلود أبد، وخلود أمد.

✓ **خلود الأبد:** هو الخلود بحيث لا يخرج صاحبه من النَّار أبدًا، وَهٰذَا إِنَّمَا هو للكفار.

✓ **وخلود الأمد:** هو الخلود الطويل الَّذِي ينتهي إِلَىٰ أمد ويخرج صاحبه من النَّار، لكن -وَالعِيَاذُ باللهِ- لطول مُكثِه كأنه خالدٌ في النَّار.

وَهٰذَا لعُصاةٍ من المؤمنين يرتكبون معاصي كبرى ومنها: قتل النفس المؤمنة تعمدًا، ﴿وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣]؛ وَهٰذَا يدل عَلَىٰ: عِظم هٰذِه الجريمة، فكيف إِذَا قتل مسلمٌ مسلمًا متعمدًا واغتبط بقتله كما سيأتينا إِنْ شَاءَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ، لَا شَكَّ أن الجُرم أعظم.

والله عَزَّ وَجَلَّ قَالَ في صفات المؤمنين المُفلحين: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الفرقان: ٦٨-٧٠].

قول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الفرقان: ٦٨-٧٠]، وَهٰذَا يشمل: النفس الَّتِي حرم الله قتلها مطلقًا سواءً كانت نفسًا مؤمنة، أَوْ كانت نفسًا لكافرٍ حرم الله قتلها، فقتل نفسٍ مؤمنة المُعبر عنها عند أهل العِلم: بالنفس المعصومة كبيرة من كبائر الذنوب، وحِفظها مقصدٍ عظيمٌ من مقاصد الشريعة.

الله عَزَّ وَجَلَّ قَالَ: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الإسراء: ٣٣]، وَهٰذَا حفظٌ لهذِه الأنفُس، وَالنَّبِيّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أكد هٰذَا المقصد العظيم تأكيدًا عظيمًا فَقَالَ مثلًا صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَنْ يَزَالَ المُؤْمِنُ فِي فُسْحَةٍ مِنْ دِينِهِ، مَا لَمْ يُصِبْ دَمًا حَرَامًا».

ومعنى هٰذَا: أنه إِذَا أصاب دمًا حرامًا فقد أوقع نفسه في الورطة وضاق عليه الأمر، ولذلك جاء في الحديث الآخر قول النَّبِيّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا يَزَالُ الْمُؤْمِنُ مُعْنِقًا صَالِحًا، مَا لَمْ يُصِبْ دَمًا حَرَامًا،

فَإِذَا أَصَابَ دَمًا حَرَامًا بَلَّحَ»؛ المُعنِق: طويل العُنق، قَالَ العلماء المقصود: كناية عن الخير والاجتهاد في الطاعة، ومعنى بَلَحَ: انقطع من الخير.

فإصابة الدم الحرام تُسبب للإنسان: أن ينقطع من الخير، ولذلك يُلحظ عَلَىٰ الَّذِين يتسارعون إِلَىٰ القتال في الفتنة أن قلوبهم تصبح قاسية قسوةً يمجُها كل إنسان ويأباها كل إنسان فضلًا عن المسلم؛ لأن الدم الحرام يقطع الإنسان عن الخير، ومن الخيرات، ولذلك كلا تعجب مِمَّا تراه من أهل الخروج الَّذِينَ يقتلون ويفعلون أفعالًا لو عُرِضت عَلَىٰ إنسان أي إنسان لنفر منها، فكيف بمسلم.

وَالنَّبِيّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ قولًا يُزلزِل القلوب، ويجعل المسلم يبتعد عن أن يقتل مسلمًا فَقَالَ: «كُلُّ ذَنْبٍ عَسَىٰ اللهُ أَنْ يَغْفِرَهُ، إِلَّا مَنْ مَاتَ مُشْرِكًا، أَوْ مُؤْمِنٌ قَتَلَ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا»، وَهٰذَا يدل: عَلَىٰ عِظم هٰذِه الجريمة، وَقَالَ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَمَنِ اسْتَطَاعَ أَنْ لَا يُحَالَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الجَنَّةِ بِمِلْءِ كَفِّهِ مِنْ دَمٍ أَهْرَاقَهُ فَلْيَفْعَلْ»؛ وَهٰذَا دليل عَلَىٰ: أن قتل النفوس المعصومة سببٌ للحِرمان من الجَنَّة.

بل قَالَ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَزَوَالُ الدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَىٰ اللهِ مِنْ قَتْلِ رَجُلٍ مُسْلِمٍ»، وَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا فَاعْتَبَطَ بِقَتْلِهِ، لَمْ يَقْبَلِ اللهُ مِنْهُ صَرْفًا، وَلَا عَدْلًا»؛ يعني: لم يقبل الله منه فريضة ولا نافلة، أي: أنه لا يُثاب عَلَىٰ الفريضة ولا عَلَىٰ النَّافِلَة، وفسر كثيرٌ من السَلَف هٰذَا الحديث: بأنهم الَّذِي يقاتلون في الفتنة فيقتل أحدهم فيرى أنه عَلَىٰ هدى فيُسر به.

والقتال في الفتنة يا إخوة ليس قتال الخوارج، قتال الخوارج بالنسبة لَمَن يقاتلهم ليس قتال فتنة، قتال جهاد في سبيل الله، فإن السَلَف مُجمِعون عَلَىٰ أن الخوارج يقاتلون، انتبه إِلَىٰ هٰذَا الأمر لأني أسمع بعض الطيبين يقولون: إن قتال الخوارج قتال فتنة، وأكثر السَلَف يرون اعتزال قتال الفتنة، وَهٰذَا خلاف ما عليه السَلَف، وما أوصى به النَّبِيّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأمر به، فَقَالَ: «فإذا لقِيتَهم فاقتُلْهُم فإنَّ قتلَهم أجرٌ لمن قَتَلَهم يومَ القيامةِ».

وقد أخبر النَّبِيّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أنه لو أدركهم لقاتلهم؛ فَقَالَ: «لئنْ أدركتُهم لأقتُلَنَّهم قتْلَ عادٍ أَوْ قتْلَ ثمودٍ»، أَمَّا قتال الفِتنة فهو: القتال الَّذِي يقع بين طائفتين مسلمتين لكل منها تأويل، طائفتان مُتأولتان القتال بينهم قتال: فِتنة، أكثر السَلَف عَلَىٰ اجتنابه، إِذَا كان هٰذَا الحديث فسره كثير من السَلَف في

الرجل في قتال الفتنة، فكيف بما يفعله الخوارج الَّذِينَ يقتلون مَن يخالفونهم من أهل الإسلام؛ لأنهم يُكفِرونهم.

فمن صفات الخوارج: أنهم يُكفِرون كل مَن خالفهم، ولذلك كفروا صحابة رَسُولُ اللَّهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والخوارج اليوم يُكفِرون مَن يُخالِفهم، ويُقتِلون المسلمين، لَا شَكَّ أن مَن يفعل هٰذَا من الخوارج أعظم جرمًا من الَّذِينَ يقتلون في الفتنة.

ويدخل في قتل النفس المؤمنة ما يفعله بعض الناس اليوم من: غِش الشباب، وإرشادهم إِلَىٰ الأماكن الساخنة الَّتِي تسمى: جهادية، وقد بين العلماء أن القتال فيها: ليس جهادًا بالنسبة لَمَن يذهب إليها، الَّذِي يغُش الشباب ويُشجِعهم عَلَىٰ هٰذَا ويُرشِدهم إِلَىٰ هٰذَا فيذهبون ويُقتلون هناك هو قاتلٌ لهم، وله نصيبٌ من الوعيد الوارد في هٰذَا.

وامتد حفظ الأنفس في القرآن إِلَىٰ حفظ الإنسان من نفسه، فتُحفَظ نفس الإنسان من نفس الإنسان، ولذلك قَالَ الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [النساء: ٢٩]، فنهى الله عَزَّ وَجَلَّ المسلم عن أن يقتل نفسه نهيًا مُطلقًا لن يستثني من ذلك شيئًا.

وبين النَّبِيّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أن مَن قتل نفسه بشيءٍ عُذِب به يوم القيامة؛ وَهٰذَا يدل عَلَىٰ: تحريم أن يقتل الإنسان نفسه مُطلقًا، وأن الشريعة جاءت بحفظ نفس الإنسان من الإنسان، فليس في الشريعة دليلٌ أَوْ صورةٌ يجوز فيها أن يقتل الإنسان نفسه، بل حرم الله عَلَىٰ الإنسان أن يقتل نفسه مُطلقًا.

وامتد حفظ الأنفس إِلَىٰ حفظ الذرية فحرم الله عَزَّ وَجَلَّ عَلَىٰ الأب أن يقتل ابنه، قَالَ الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ [الأنعام: ١٥١]، ولذا قَالَ العلماء: إن إِذَا وُجِد في الرحم لا يجوز إسقاطه مُطلقًا لأن في إسقاطه قتلًا له، لكن إِذَا كان دون الأربعين يومًا ووُجِدت حاجة فإنه يجوز أن يُسقط لأنه لم يُصبِح شيئًا فمجرد نُطفة وماء.

يعني مثلًا: لو أن امرأةً تتناول دواءً مثلًا لمعالجة مرض وَهٰذَا الدواء لا يصلُح مع الحمل وهي بحاجة إليه، فشاء الله أن تحمل فعلِمت بعد أسبوع أنها حامل، وَقَالَ الأطباء: ما فيه غِنى عن هٰذَا الدواء فَلَا بُدَّ منه، ولا يمكن أن تأخذه المرأة مع الحمل فهنا: يجوز إسقاطه للحاجة، وإذا كان فوق الأربعين يومًا إِلَىٰ الأربعة أشهر ونفخ الروح يجوز إسقاطه للضرورة.

إِذَا قَالَ الأطباء: يؤدي بحسب عِلمنا إِلَىٰ أن تموت الأم مثلًا، امرأة تتناول دواءً للسرطان، وَهٰذَا النوع من السرطان يقول الأطباء: إنه قاتل، لا يُمهِل صاحبه كثيرًا ويُعالج بهذا الدواء، فحمِلت المرأة ولم تعلم بحملها إِلَّا بعد شهرين أَوْ ثلاثة أشهر قبل نفخ الروح، فَقَالَ الأطباء لا نستطيع أن نعطيها الدواء وهي حامل، وإذا لم تأخذ الدواء فإنه يغلب عَلَىٰ ظننا أنها ستموت، هنا يجوز إسقاطه لهٰذِه الضرورة.

فإِذَا نُفِخت فيه الروح فإنه لا يجوز إسقاطه مُطلقًا، لا لحاجة ولا لضرورة لأنه لا تُحيى نفسٌ بإماتة نفس؛ ولأننا لو أسقطناه فموته مُتيقن، أَمَّا إذا أبقيناه فموت المرأة مضمون ولا نفعل مفسدةً يقينية لندرأ مفسدةً مضمونة، الشاهد يا إخوة أريد أن أقول: إن الإسلام حفِظ الأنفس المسلمة من كل وجه، وكذلك: حفِظ الأنفس المعصومة بالأمان.

إِذَا كان الكافر ذِميًا؛ يهوديًا، أَوْ نصرانيًا ويُقيم تحت حُكم المسلمين فإن نفسه معصومة، أَوْ كان مستأمنًا فدخل بلادنا بأمان فإن نفسه معصومة سواء أمنه الحاكم، أَوْ أمنه فردٌ من الأُمَّة، فذمة المؤمنين واحدة يسعى بها أدناهم، ومَن أخر مؤمنًا في ذِمته فعليه لعنة الله والملائكة والناس أَجْمَعِيْنَ، فإذا دخل الكافر بأمانٍ ولو بفردٍ من أفراد المسلمين فاعتدا عليه مسلم فقتله فإنه يدخل في الوعيد فعليه لعنة الله والملائكة والناس أَجْمَعِيْنَ.

بل يا إخوة الفقهاء ضربوا أروع الأمثلة في حفظ الدماء بالأمان، ذَكَرَ الفقهاء أنه لو أن مسلمًا أشار إشارةً فهِم منها الكافر الأمان فنزل إِلَىٰ المؤمنين فَقَالَ المسلم: لم أُرِد الأمان وجب عَلَىٰ المسلمين أن يعيدوا الكافر إِلَىٰ مأمنه، يعني: لو أن المسلمين يحاصرون حِصنًا للكفار في حالة حرب وقتال، فمسلم يلبس عمامة بيضاء مثل عمامتي هٰذِه وأخذ يفعل بها هكذا، من عُرف الناس: أن رفع الشيء الأبيض يعني الأمان.

رآه كافرٌ في الحصن يفعل هٰذَا فنزل إِلَىٰ المسلمين؛ لأنه يعرف أن المسلمين أهل وفاء، فلما جاء قَالَ: هٰذَا أمنني فأشار إليّ قَالَ المسلم: لا أنا كنت أنفض الغُبار من عُمامتي، ما أردت الأمان، فتبين هنا أنه لم يأمنه، يجب عَلَىٰ المسلمين أن يعيدوه إِلَىٰ القلعة وألا يقتلوه، مع أن المسالة في حالة قتال، لكن لما فهم شبهة الأمان وجب عَلَىٰ المسلمين الوفاء.

وكذلك إِذَا كان معاهدًا فإنه يُحفظ دمه، وَالنَّبِيّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَنْ قَتَلَ مُعَاهَدًا لَمْ يَرِحْ رَائِحَةَ الجَنَّةِ، وَإِنَّ رِيحَهَا تُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ عَامًا»، وفي رواية صحيحة: «مِنْ مَسِيرَةِ سَبْعِينَ عَامًا»، وفي رواية صحيحة: «مِنْ مَسِيرَةِ مِائَةِ عَامٍ»، والمقصود: أن هٰذَا سبب لأن يُبعد عن الجَنَّة -وَالعِيَاذُ باللهِ-.

ومن النفوس المؤمنة المحفوظة وَالَّتِي يقصد الإسلام حِفظها: نفوس الرُسُل، أعني: رُسُل الملوك الَّذِينَ يُرسلون، فإن النَّبِيّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما جاء رسولا مُسيلِمة، وأخبراه بما يقول مسَيلَمة قَالَ: فما تقولان أنتما، قالوا: نقول كما قَالَ صاحبنا، فنحن عَلَىٰ دين مسيلمة، فَقَالَ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَوْلَا أَنَّ الرُّسُلَ لَا تُقْتَلُ لَضَرَبْتُ أَعْنَاقَكُمَا».

قَالَ العلماء ويُلحق بهم في زماننا الصحفيون وعُمال الإغاثة الَّذِين يأتون إِلَىٰ أماكن الحروب للتغطية الإعلامية، أَوْ للإغاثة والعمل في الإغاثة فإن نفوسهم معصومة ولو كانوا من ديار الكفار الَّذِينَ نقاتلهم، فالإسلام يقصد حفظ الأنفس الَّتِي ذكرناها.

بل يا إخوة إِذَا ظهر من النفس أنها معصومة لم يُجِز قتلها ولو قامت قرائن عَلَىٰ غير العِصمة، أسامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان في عزوةٍ، أَوْ في سريةٍ فكان هناك رجلٌ يُقاتل المسلمين، ثُمَّ فر فلما أدركه أسامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ومعه رجل من الأنصار قَالَ الرجل: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، قَالَ أسامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فكف عنه الأنصاري وطعنته برُمحي حَتَّىٰ قتلته.

↩ **لماذا؟** لأن الآن هنا قرينة: أنه ليس صادقًا في إسلامه؛ لأنه الآن كان يُقاتل المسلمين ولما غُلِب فر، فلما أدركه الصحابيان هنا قَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، القرينة: أنه غير صادق في قول لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فلما بلغ ذلك النَّبِيّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: يا أسامة أقتلته بعد ما قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، قَالَ: يا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّمَا قالها مُتعوِذً يرد أن ينجو من السيف، فَقَالَ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أقتلته بعدما قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فما زال يكررها حَتَّىٰ تمنى أسامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه لم يُسلِم إِلَّا في ذلك اليوم.

وفي رواية: «أَشَقَقْتَ عَنْ قَلْبِهِ أين تذهب من لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ يوم القيامة»، المقداد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول للنبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أرأيت يا رَسُولَ اللَّهِ إن لقيت رجلًا فقطع يدي ثُمَّ لَاذَ مِنِّي بِشَجَرَةٍ، ثُمَّ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، أَقْتُلُهُ بعد ما قَالَ لا إله إِلَّا الله؟ قَالَ: «لَا»، رأيتم السور يا إخوة.

هٰذَا رجل يقاتل المسلمين فقطع يد المسلم، ثُمَّ خاف من المسلم فلاذ بشجرة وَقَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ إِلَّا الله، أأقتله بعد ما قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، قَالَ: «لَا تَقْتُلْهُ»، قَالَ: يا رسو الله قطع يدي، قَالَ: «لَا إِلَّا أَنْ تَكُونَ مِثْلَهُ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ، وَيَكُونَ مِثْلَكَ قَبْلَ أَنْ تَفْعَلَ مَا فَعَلْتَ».

فهنا يا إخوة نعرف أن الإسلام حفِظ الأنفس حفظًا عامًا لكل نفسٍ مؤمنة، ولذلك: لا يحل لمؤمن أن يتساهل في قتل المسلمين، أَوْ في قتل الأنفس الَّتِي عصمها الله عَزَّ وَجَلَّ بحُجة أنه يظهر كذا أَوْ يظهر كذا، ما لم يفعل المعصوم سببًا لقتله فيجوز قتله ممَن جعل الله له قتله.

من مقاصد الشريعة في القرآن الكريم مقصِدٌ عظيم الأُمَّة بحاجة إليه في كل حين ألا وهو: مقصد تحصيل العِلم، يقول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: ١١]، فحكم الله عَزَّ وَجَلَّ لأهل الإيمان والعِلم بالرِفعة في الدنيا وَالآخَرة، وَهٰذَا يدل عَلَىٰ: أن تحصيل العِلم من أعظم مُرادات الله ومن أعظم مقاصد الشريعة.

وَقَالَ الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤]؛ وَهٰذَا أمرٌ للنبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وتعليمٌ لأمة مُحَمَّد صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهٰذَا لشرف العِلم، والعلم خيرٌ لا يُشبع منه، ولا يُنتهى منه، ولذلك يقول العلماء: العِلم كلما دخلت فيه كلما رغِبت فيه، كل ما أكثرت من العِلم كلما رغِبت في الطلب أكثر؛ لأنك كلما تعلمت كلما رأيت أنك تجهل كثيرًا فتطلب أكثر.

ولذلك يقول العلماء: مَن ظن أنه في العِلم قد وصل فقد انقطع؛ مَن ظن أنه أصبح عالمًا لا يحتاج إِلَىٰ أن يطلب العِلم فقد انقطع لأن طلب العِلم دائم، ولهذا لم يزل النَّبِيّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في زيادة من العِلم إِلَىٰ أن مات صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولشرف العِلم في الإسلام ولشرف تحصيله، وأن تحصيله من أعظم مقاصد الشريعة: جعل الله عَزَّ وَجَلَّ أهله من الشهداء عَلَىٰ ألوهيته؛ ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾ [آل عمران: ١٨].

إِذًا تحصل العِلم من أعظم مقاصد الشريعة، والعلم أَيُّهَا الإخوة شجرة كل خير، فالعلم لا يُثمِر إِلَّا خيرًا، كما أن الجهل شجرة كل شر، فما من شرٍ إِلَّا وهو ثمرة الجهل، ولا من خيرٍ إِلَّا وهو ثمرة العِلم، ولذلك ديننا دين عِلم، والشيطان حريص عَلَىٰ أن يصرف المسلمين عن طلب العِلم، وعَلَىٰ أن يُزهِدهم في طلب العِلم، وشياطين الإنس اليوم حريصون عَلَىٰ إبعاد المسلمين عن طلب العِلم السلفي الصافي.

ولذلك: إذا رأوا شابًا مقْبلًا عَلَىٰ العِلم عند العلماء الربانيين المعروفين بالسلفية الصافية النقية نفروا طالب العِلم من أن يذهب إِلَىٰ هٰذَا الشيخ، إِمَّا بأن يصفوا هٰذَا الشيخ بأوصافٍ مُنفرِة، وَإِمَّا أن يقولوا لطالب العِلم: إنك في مرحلة لازلت لا تفهم كلام العلماء، فلا تذهب إِلَىٰ هؤلاء العلماء لأن كلامهم أكبر منك.

وهناك شياطين من الإنس اليوم ينفرون من العِلم الشرعي، ويكتبون في الجرائد والمجلات وفي الصُحُف مُفرين عن العِلم الشرعي، ويتهمون العِلم الشرعي بأنه سبب تخلف الأُمَّة، وأن الأُمَّة ليست بحاجة إِلَىٰ هٰذَا العِلم، الأُمَّة بحاجة إِلَىٰ عِلم صناعة الصواريخ والدبابات، الأُمَّة بحاجة إِلَىٰ عِلم كذا وكذا.

وَلَا شَكَّ أن الأُمَّة بحاجة إِلَىٰ هٰذَا العِلم، لكن حاجتها إِلَىٰ العِلم الشرعي أعظم، وماذا يفيد الأُمَّة لو أن الأُمَّة لم تتعلم دينها، وأصبح الدين يُجهل في أهله، وأصبح الناس يتقدموا في عِلم الصواريخ، والأسلحة وغير ذلك، نريد أمةً متمسكةً بدينها متقدمة في دُنياها، أَمَّا ما يفعله هؤلاء الشياطين من محاولة إبعاد العِلم الشرعي أَوْ محاولة تقليص العِلم الشرعي، وزعم بعضهم أن هٰذَا العِلم هو سبب الإرهاب، وأن هٰذَا العِلم هو الَّذِي يقود الشباب إِلَىٰ الإرهاب والتطرُف، فكل هٰذَا من الباطل.

والله لا ينشأ الإرهاب إِلَّا من الجهل، ولا ينشأ التطرف إِلَّا من الجهل، وَهٰذِه الدعاوى والأطروحات الَّتِي تُطرح في الصفوف هي من التطرف؛ لأن التطرف: أخذ أحد الطرفين عن الوسطية الشرعية؛ إِمَّا طرف الغلو كما يفعل الخوارج، وَإِمَّا طرف التفريق والتقصير ومحاولة تزهيد الناس في دينهم كما يفعل ما يسمون: باللِبراليين وغيرهم، فلا خير للأُمَّةِ إِلَّا في هٰذَا العِلم، ولذلك هٰذَا العِلم الشرعي يُطلق شياطين الجن والإنس.

فواجبٌ علينا نحن معاشر طلاب العِلم: أن نعرف نعمة الله علينا، وأن نلزم هٰذَا الطريق، وأن نصبر، فإن هٰذَا الطريق مآله الخير في الدنيا والآخرة، النَّبِيّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ بِهِ عِلْمًا، سَهَّلَ اللهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَىٰ الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا لِطَالِبِ الْعِلْمِ رِضًا بِمَا يَصْنَعْ، وَإِنَّ الْعَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ، وَمَنْ فِي الْأَرْضِ، حَتَّىٰ الْحِيتَانُ فِي الْمَاءِ، وَفَضْلُ الْعَالِمِ عَلَىٰ الْعَابِدِ، كَفَضْلِ الْقَمَرِ عَلَىٰ سَائِرِ الْكَوَاكِبِ، أَلَا وَإِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ، وَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا، وَإِنَّمَا وَرَّثُوا الْعِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ».

ولذلك يقول العلماء: العِلم طريقٌ أوله في الدنيا وآخره في الجَنَّة، أنت يا طالب العِلم إِذَا سلكت هٰذَا الطريق، فاعلم أنك في طريق الجَنَّة، فاثبت واصبر مخلصًا لله عَزَّ وَجَلَّ، عاملًا بما تتعلم حَتَّىٰ تحط رحلك إِنْ شَاءَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ في الجَنَّة الَّتِي أعد فيها الله عَزَّ وَجَلَّ لعباده الصالحين ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر عَلَىٰ قلب بشر.

من مقاصد الشريعة العظمى في القرآن: التجمل بحسن الخلق؛ وحسن الخلق في الدين أجمل لباس وأبهى حلة، يقول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القلم: ٤]، يقول هٰذَا للنبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وفي هٰذَا تشويقٌ لأمته إِلَىٰ أن يتصفوا بالأخلاق العظيمة.

يقول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ۝١٩٩﴾ [الأعراف: ١٩٩]، قَالَ كثيرٌ من المفسرون: العفو هنا هو أن يأخذ العفو من أخلاق الناس ومن أعمالهم، وفي صحيح البخاري عن عبد الله بن الزبير أنه قَالَ: **"إِنَّمَا أَنْزَلَ خُذِ الْعَفْوَ مِنْ أَخْلَاقِ النَّاسِ"**، قَالَ ابن كثير: **"وَهٰذَا أشهر الأقوال"**، فهو أمرٌ بالأخذ بالطيب من أخلاق الناس.

قَالَ الإمام بن سعدي رَحِمَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: **"هٰذِه الآية جامعة لحسن الخلق مع الناس، وما ينبغي في معاملتهم، فَالَّذِي ينبغي أن يُعامل به الناس أن يأخذ العفو؛ أي ما سمحت به أنفسهم، وما سهل عليهم من الأعمال والأخلاق، فلا يُكلفهم ما لا تسمح به طبائعهم، بل يشكر من كلِّ أحدٍ ما قابله به من قولٍ وفعلٍ جميل، أَوْ ما هو دون ذلك، ويتجاوز عن تقصيرهم، ويغض طرفه عن نقصهم، ولا يتكبر عَلَىٰ الصغير لصغره، ولا ناقص العقل لنقصه، ولا الفقير لفقره، بل يُعامل الجميع باللطف، والمقابلة بما تقتضيه الحال، وتنشرح له صدورهم"**.

وحسن الخلق أَيُّهَا الإخوة في ديننا يجمع: فعل الفضائل، واجتناب الرذائل، وهو صفة الأخيار الأبرار كما وصف الله عَزَّ وَجَلَّ نَبِيِّنَا صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ به، فَالنَّبِيّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان خُلقه القرآن، ولم يكن فاحشًا ولا متفحشًا صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكان يقول: «إِنَّ خِيَارُكُمْ أَحَاسِنُكُمْ أَخْلَاقًا»، وَهٰذَا يُؤكد يا إخوة هٰذَا المقصد القرآني، «إِنَّ خِيَارُكُمْ أَحَاسِنُكُمْ أَخْلَاقًا» هٰذِه شهادة بالخيرة من النَّبِيّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لمن؟ لمن حسن خلقه من المؤمنين، فإذا أردت أن تنال نصيبًا وافرًا من شهادة النَّبِيّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالخيرية فاجتهد في تحسين أخلاقك.

وَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جملةً عجيبةً مشوقةً لحسن الأخلاق، مؤكدةً لكون التجمل بحسن الأخلاق من أعظم مقاصد الشريعة، قَالَ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ مِنْ أَحَبِّكُمْ إِلَيَّ أَحْسَنكُمْ أَخْلَاقًا»، كل مؤمن يُحب النَّبِيّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكما يقول العلماء: ليس الشأن أن تُحِب، ولكن الشأن أن تُحَب، فكل مسلم مع حبه للنبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُريد ويتمنى أن يُحبه النَّبِيّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومن أحب المسلمين إِلَىٰ النَّبِيّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أحاسنهم أخلاقًا، الَّذِينَ حسنتم أخلاقهم.

ولذلك يقول العلماء: **"من زاد عليك في الخلق زاد عليك في الدين"**، فالناس يتفاضلون مع دينهم بأخلاقهم، وكل ما زاد الإنسان في خلقه زاد منزلةً في دينه، ولذلك قَالَ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ لَيُدْرِكُ بِحُسْنِ خُلُقِهِ دَرَجَةَ الصَّائِمِ الْقَائِمِ».

بل يا إخوة إن التجمل بحسن الأخلاق أعظم الغنى في الدنيا، فلو أن الإنسان تجمل بحسن الأخلاق، وكان فقيرًا فإن هٰذَا لا يضره، يقول النَّبِيّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَرْبَعٌ إِذَا كُنَّ فِيكَ فَلَا عَلَيْكَ مَا فَاتَكَ مِنَ الدُّنْيَا» مهما فاتك من الدنيا فلا عليك إِذَا كنت متصفًا بهذه الأربعة: «صِدْقُ حَدِيثٍ، وَحِفْظُ أَمَانَةٍ، وَحُسْنُ الْخُلِقِ، وَعِفَّةٌ مَطْعَمِه».

إِذَا كنت تحرص عَلَىٰ صدق لسانك، أنت كون صادقًا في كلامك، إِذَا كنت حافظًا للأمانة مؤديًا لها، إِذَا كنت متجملًا بحسن الأخلاق، إِذَا كنت حريصًا عَلَىٰ الحلال في مطعمك، فأنت الغني حقًا، أنت الغني ومهما فاتك من الدنيا من مالٍ أَوْ جاهٍ عند الناس، فإن هٰذَا لا يضرك أبدًا.

وَهٰذَا بابٌ عظيم جدًا، والنصوص فيه كثيرة جدًا، أرشد النَّبِيّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إليه، وحثَّ عليه، وحسن الخلق من أحسن الأعمال، لكن تجد أن كثيرًا من الناس يُفرط فيه، وقد قَالَ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «عَلَيْكَ بِحُسْنِ الخُلُقِ وَطُولِ الصَّمْتِ، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا عَمِلَ الخَلَائِقِ بِمِثْلِهِمَا»، قَالَ العلماء: طول الصمت من حسن الأخلاق، وَهٰذَا هنا يكون من باب: أن النَّبِيّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أفرده لأهميته.

ولذلك يقول العلماء: من أحسن أخلاق الرجل أن يكون صموتًا؛ يعني أن يُطيل الصمت، وألا يتكلم إِلَّا بحاجة وبمقدار؛ يعني من عبارات العلماء يقولون: **"من أحسن أخلاق الرجل أن يكون صموتًا حَتَّىٰ يشتاق صاحبه إِلَىٰ كلامه"**، من الناس من إِذَا جلس معك يصمت حَتَّىٰ تشتاق مَتَىٰ يتكلم، تُحب أن

يتكلم، وَهٰذَا من حسن الأخلاق، ومن الناس من إِذَا جلس معك يتكلم حَتَّىٰ تشتاق أن يسكت، وليس هٰذَا من حسن الخلق.

يقول النَّبِيّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا عَمِلَ الخَلَائِقِ بِمِثْلِهِمَا»، فَهٰذَا مقصدٌ عظيمٌ جدًا.

من مقاصد الشريعة في القرآن: مقصد الطهر؛ الله عَزَّ وَجَلَّ يقول: ﴿وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾ [المائدة: ٦]، الله عَزَّ وَجَلَّ يُريد منا أن نتطهر، والإنسان في الدنيا يتعرض للأذى والقذر الحسي والمعنوي، ومن مقاصد الشرعية: أنت نتطهر من الأقذار الحسية والأقذار المعنوية.

ولذلك وجب عَلَىٰ المسلم إِذَا أحدث أن يتوضأ؛ ليتطهر، وأن يُزيل النَّجَاسَة ليتطهر، وأن يغتسل إِذَا أجنب ليتطهر، وهكذا في الطَّهَارَةِ الحسية، وكذلك يُريد الله عَزَّ وَجَلَّ منا أن نتطهر الطَّهَارَةِ المعنوية من أقذار الذنوب؛ بأن نتوب إِلَىٰ الله عَزَّ وَجَلَّ توبةً نصوحًا صادقة، والله عَزَّ وَجَلَّ يقول: ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾﴾ [النساء: ٢٧]، مراد الله: أن نتوب فيتوب علينا، ومراد أهل الباطل: أن ننغمس في الذنوب، وأن نقع في الشهوات.

فمن مقاصد الشريعة في القرآن الكريم: أن نتطهر من الذنوب بتوبةٍ صادقةٍ نصوح، والتوبة -كَمَا تَعْلَمُونَ- جميعًا معناها: الرجوع إِلَىٰ الله تَعَالَىٰ عن الذنب بالإقلاع عنه، والندم عليه، والعزم عَلَىٰ عدم العود إليه، التوبة معناها: أن يرجع العبد إِلَىٰ الله؛ لأن العبد إِذَا أذنب فسق؛ أي خرج عن طاعة الله إِلَىٰ معصية الله، فيبعد عن الله عَزَّ وَجَلَّ بالذنب.

وتعلمون يا إخوة: أن الذنب يُنقص الإيمان، وإذا أذنب العبد فإن إيمانه ينقُص، والعبد إِذَا أذنب مُعَرَّض بأن يُختم عَلَىٰ قلبه، فإن العبد إِذَا أذنب ذنبًا نُكتت في قلبه نكتةٌ سوداء، فإن نزع منها صُقل منها، وإن زاد زادت حَتَّىٰ ترين عَلَىٰ قلبه، فالتوبة معناها: أن يرجع العبد عن الذنب إِلَىٰ ربه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، كيف يرجع؟ بالإقلاع عنه، ليس صادقًا في توبته من يقول: إنه تائب، وهو عَلَىٰ ذنبه مقيم، لَا بُدَّ من الإقلاع عن الذنب، والندم عَلَىٰ الوقوع فيه، بأن يندم عَلَىٰ أنه قد وقع فيه.

بعض الناس قد يترك الذنب لكن لا يندم عَلَىٰ الَّذِي وقع، هٰذَا لم يتب، هٰذَا ترك الذنب، هٰذَا يا إخوة يسلم من وقوع الذنب، لكن الذنب الماضي يبقى عليه، يعني بعض الناس قد يكون عَلَىٰ ذنوب عظيمة

جدًا من الكبائر، ثُمَّ يُقلع عنها، لكنه لا يندم عَلَىٰ الَّذِي وقع منه، بل ربما لو تذكر الذنب لانشرحت أساريره، ربما قَالَ: سقى الله تلك الأيام أيام الشباب، هٰذَا ليس تائبًا، يبقى إثم الذنب السابق قائمًا عليه، نعم هو الآن سيسلم من الذنب الحاضر؛ لأنه لم يفعل، أَمَّا التائب الَّذِي يُمحى عنه الذنب، فهو الَّذِي يندم عَلَىٰ الماضي.

(والعزم عَلَىٰ عدم العود عليه)؛ أن يعزم عَلَىٰ ألَّا يرجع إِلَىٰ الذنب، والحظوا يا إخوة: لم يقل العلماء: وعدم العود إليه، عدم العود ليس شرطًا؛ لأن الإنسان قد يتوب ويُمحى عنه الذنب، ثُمَّ يعود إِلَىٰ الذنب مرةً أخرى بعد زمن، هٰذَا لا يُفسد التوبة الماضية، وَإِنَّمَا شرط التوبة: أن يعزم عَلَىٰ ألَّا يعود.

فإذا تحقق هٰذَا، فإنه يكون بهذا قد تاب توبةً نصوحة صادقة، وبهذا يسلم من الذنب، ومن إثمه، بل يُبدل الله سيئاته حسنات، كما في قول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾﴾ [الفرقان: ٦٨-٦٩]، ومع ذلك قال الله: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٧٠﴾﴾ [الفرقان: ٧٠].

﴿فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾؛ قَالَ بعض العلماء: معنى هٰذَا: أن الله عَزَّ وَجَلَّ يجعل هٰذِه السيئات حسنات بدلًا من أنه كان يستحق العقوبة بسببها يُثاب عليها، وَهٰذَا من فضل الله، قد يزني العبد، ثُمَّ يتوب إِلَىٰ الله عَزَّ وَجَلَّ، فيُبدل الله هٰذِه من كونها سيئة إِلَىٰ كونها حسنة.

وَهٰذَا ليس بعيدًا عَلَىٰ فضل الله عَزَّ وَجَلَّ، فإنه ثبت يا إخوة من فضل الله: «أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ لِمَلَائِكَتِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: اعْرِضُوا عَلَىٰ عَبْدِي سَيِّئَاتِه، وَلَهُ صَغَائِر وَكَبَائِر، فَيَعْرِضُونَ عَلَيْهِ صَغَائِر سَيِّئَاتِهِ، فَيُقَرُّ بِهَا وَهُوَ خَائِفٌ مِنَ الكَبَائِرِ»؛ يعني كلما عرضوا عليه صغيرة يُقرّ بها، وهو خائف من الكبائر، «حَتَّىٰ إِذَا فُرِغَ مِنْ صَغَائِرِهِ قَالَ الله: اجْعَلُوا لَهُ مَكَانَ كُلِّ سَيِّئَةٍ حَسَنَةً، فَيَقُولُ: يَا رَبِّي إِنَّ لِي ذُنُوبًا لَمْ أَرَهَا» فَضَحِكَ النَّبِيّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما ذَكَرَ هٰذَا، الرجل كان خائفًا من هٰذِه الذنوب أن تُعرض، فلما رأى فضل الله، وأن الله قَالَ لملائكته: « اجْعَلُوا لَهُ مَكَانَ كُلِّ سَيِّئَةٍ مِنْهَا حَسَنَةً» هُوَ يُذكر بالذنوب، يقول: «يَا رَبِّي إِنَّ لِي ذُنُوبًا لَمْ أَرَهَا» من طمعه لما رأى فضل الله.

فإذا كان هٰذَا كهذا، فليس بعيدًا أن يُبدل الله سيئات التائب إِلَىٰ حسنات، فتكون سيئاته قبل التوبة حسناتٍ بعد التوبة، وَقَالَ بعض أهل العِلم: إن معنى الآية: أن الله عَزَّ وَجَلَّ يجعله يعمل حسناتٍ بدلًا من تلك السيئات، فيُيسر له الحسنات، قلت: ولا مانع من الأمرين، وأن يكون الأمران مرادين من الآية، فإنه لا تعارض بينهما.

والتوبة النصوح؛ لأن بالأمس جاء سؤال نذكرها، التوبة النصوح كما يقول أهل العِلم: **هي الَّتِي تتوفر فيها الشروط:**

- **وأول هذِهِ الشروط:** الإخلاص لله بأن يكون الدافع للعبد لكي يُقلع عن الذنب خوف الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الَّذِي يجعله يترك الذنب هو خوف الله عَزَّ وَجَلَّ.
- **الشرط الْثَّانِي:** أن يُقلع عن الذنب -كَمَا قُلْنَا-، فليس صادقًا في توبته من يبقى عَلَىٰ الذنب ويقول: أنا تائب.
- **الشرط الْثَّالِث:** أن يندم عَلَىٰ ما مضى من تلك الذنوب.
- **الشرط الرَّابِع:** أن يعزم عَلَىٰ عدم العود إِلَىٰ الذنب، وَهٰذَا كله تقدم.
- **الشرط الخَامِس:** أن تقع التوبة في وقتها، والتوبة لها وقت:
  - ⇦ وقت عام تنتهي إليه.
  - ⇦ ووقت خاص بالنسبة لكل إنسان.

أَمَّا وقتها العام: فهو أن تطلع الشَّمْس من مغربها، فإذا طلعت الشَّمْس من مغربها أُغلق باب التوبة.

وَأَمَّا وقتها الخاص: فهو ما لم يُغرغر الإنسان؛ يعني ما لم يصل إِلَىٰ حَدِّ الغرغرة عند خروج الروح، فمادام لم يُغرغر فإن باب التوبة مفتوح.

- **بقي شرطٌ يذكره أهل العِلم للتوبة النصوح:** إِذَا كان الذنب حقًا لآدمي، وهو أن يُعيد الحق إِلَىٰ صاحبه أَوْ يستحله منه، والعلماء قالوا: هٰذَا الحق:
  - ⇦ إِمَّا حسي.
  - ⇦ وَإِمَّا معنوي.

⇦ **والحسي:** مثل المال، إنسان سرق مالًا من آخر، ثُمَّ تاب لَا بُدَّ أن يُعيد المال إِلَىٰ صاحبه، أَوْ يُحله صاحبه، إِمَّا أن يُعيد المال، ولا يلزم أن يُخبره أنه سرق منه، ما يلزم منه، لكن يُوصل المال إليه، أَوْ يُحله صاحب المال يذهب إليه يقول: يا أخي أنا قبل كذا سرقت منك مالًا، والآن ما عندي وأُريد أن تُحلني.

⇦ **وأما الحق المعنوي:** كالغيبة، كما لو اغتابه أَوْ سبَّه، فهنا يقول العلماء: **لا يخلو الأمر من حالين:**

☜ **الحال الْأُولَى:** أن يكون صاحب الحق قد علم بالذنب؛ يعني سبَّه أمامه، يعلم أنه سبه، أَوْ اغتابه وبلغه: أنه يغتابه، فهنا لَا بُدَّ أن يستحله، ويطلب منه العفو.

☜ **والحالة الْثَّانِية:** ألا يكون صاحب الحق قد علم بالذنب؛ سبه لكن لم يعلم أنه قد سبه، أَوْ اغتابه لكن لم يعلم أنه اغتابه، فهنا يقول العلماء: إِذَا كان يثق في عقله وحلمه فإنه يستحله، أَمَّا إِذَا كان يخاف الفتنة، والفرقة والشر فإنه يكفيه أن يدعو له، ويذكره بخير.

يعني مثلًا: اغتبتني في مجلس من المجالس، وأنا لم أعلم بهذه الغيبة، وأنت تثق أَوْ يغلب عَلَىٰ ظنك أنك لو جئتني فقلت: يا فلان أنا اغتبتك وأريد أن تُسامحني أقول: سامحك الله، هنا تذهب إليه وتستحله، أَمَّا لو كنت تعرف من أخلاقي وطريقتي أنك لو جئتني وقلت: أنا اغتبتك، قلت: لا أحلك الله، ولا أريد أن أكلمك، ولا أريد أن أراك، فإنك لا تُخبرني؛ لأن هٰذَا يُولد مفسدة، ولكن يكفي إِنْ شَاءَ اللهُ أن تدعو لي، وأن تُثني علي بخير مِمَّا هو فيّ، وَهٰذِه هي التوبة النصوح.

من مقاصد الشريعة الكبرى في القرآن: مقصد التيسير؛ الله عَزَّ وَجَلَّ يُريد بنا اليسر، يقول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، يُريد الله في شرعه وأمره بكم اليسر، ولا يُريد بكم العسر، ويقول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ﴾ [النساء: ٢٨]، فالله عَزَّ وَجَلَّ في شرعه وأمره يُريد أن يُخفف عنَّا، وَقَالَ الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ﴾ [المائدة: ٦].

وَهٰذَا اليسر يا إخوة الَّذِي يُريده الله:

منه يسر عام: موجودٌ في الشريعة كلها، فالشريعة كلها سهلة، لا يوجد في الشريعة ما يصعب عَلَىٰ الناس ويشق عَلَىٰ الناس مشقة زائدة، بدءًا من التوحيد وما أيسره، والأعمال الصالحة كالصلاة والصيام وَالزَّكَاة والحج، كلها ميسرة في غاية اليسر.

ومنه ما هو يسرٌ خاص: وهو التيسير عَلَىٰ العبد إذا شق عليه الأمر فيُخفف عنه، فالمشقة تجلب التيسير؛ يعني الإنسان إِذَا مرض وشقَّ عليه أن يصوم في رمضان يُيسر عليه فيُقال له: صم في أيام أخرى، الإنسان إِذَا سافر يضعف، والسفر قطعة من العذاب، فيُخفف عنه، فيُصلي الرباعية ركعتين، وله أن يجمع الظهر مع العصر أَوْ العصر مع الظهر، ويجمع المغرب مع العشاء، أَوْ العشاء مع المغرب، هٰذَا تيسير لأسباب عارضة.

من التيسير في الشريعة الَّتِي يُريده الله عَزَّ وَجَلَّ بنا: أن الله عَزَّ وَجَلَّ لم يُكلفنا ما لا نُطيق، في دعاء المؤمنين المبارك في آخر سورة البقرة: ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، قَالَ الله كما ورد في الصحيح صحيح مسلم: «نَعَمْ»؛ يعني هٰذَا يكون، فاستجاب الله لدعاء المؤمنين.

من أصول التيسير في الشريعة الَّذِي هو مقصد من مقاصد الشريعة في القرآن الكريم: أنه لا واجب مع العجز، فكر أمرٍ أُمر به الإنسان عجز عنه يسقط عنه؛ لقول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦]، ولقول النَّبِيّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ».

وأضرب لكم مثالًا يكثر وقوعه لهذا الأصل الشريف في التيسير: إِذَا ركبت الطائرة أنت مأمورٌ بالصلاة، فإذا مثلًا طرت قبل الفجر وتصل للأرض بعد شروق الشَّمْس، أنت مأمورٌ بصلاة الفجر، يجب أن تُصلي الفجر، تقول: لا أستطيع أن أقف في الطائرة؟ نقول: يسقط القيام، لا واجب مع العجز، تقول: لا أستطيع أن أستقبل القبلة؛ إِمَّا لأني لا أعرفها، أَوْ لأني لا أستطيع أن أتوجه، أنا ملزم بالكرسي، والكرسي عكس القبلة؟ نقول: يسقط هٰذَا، وتُصلي عَلَىٰ حالك.

تقول: لا أستطيع أن أركع وأسجد كالمعتاد؟ نقول: تسقط عنك الهيئة وتُشير بالركوع والسجود، لا واجب مع العجز، فحيث ما وُجد العجز سقط الواجب، إِذًا يا إخوة التيسير مقصدٌ عظيم من مقاصد الشريعة في القرآن.

وهنا ذَكَرَ بعض أهل العلم فائدة نفيسة في هذا الباب: قَالَ: إِذَا كان الله عَزَّ وَجَلَّ يُريد منا اليُسر في شرعه، فينبغي أن نُعامل الناس باليسر، إِذَا كان الله يسر علينا في العبادات، يسر علينا في الشَرعَ، فينبغي أن نُيسر عَلَىٰ الناس في المعاملة، وَهٰذَا في الحقيقة أصلٌ شرعي: «رَحِمَ اللهُ رَجُلًا رَمْحًا إِذَا بَاعَ، سَمْحًا إِذَا اشْتَرَىٰ، سَمْحًا إِذَا قَضَىٰ، سَمْحًا إِذَا اقْتَضَىٰ».

فمن أصول المعاملة الشرعية والأخلاق الحسنة: أن نُعامل الناس باليسر، إِذَا أردت من زوجتك أمورًا فيسر عليها، إِذَا أردت من أبنائك أمورًا فيسر عليها، عاملهم باليسر، فإن هٰذَا يدخل في مقصد التيسير الَّذِي أراده الله عَزَّ وَجَلَّ.

عَلَىٰ كل حال يا إخوة مقاصد الشريعة في القرآن كثيرة جدًا، وكنت حقيقة أطمع أن أتكلم عن مزيدٍ منها، يعني هناك مقاصد يغفل عنها كثير من الناس مع أهميتها، وطيب الحياة بها، مثل مثلًا مقصد طمأنينة البيت، مقصد طمأنينة البيت من مقاصد الشريعة الكبرى الَّتِي جاءت في القرآن، وله أصول، فينبغي أن يُهتم به أَيُّهَا الإخوة.

مقصد الجهاد في سبيل الله، هٰذَا مقصد عظيم من مقاصد الشريعة في القرآن، وله معانيها الَّتِي جلَّها العلماء، فينبغي العناية به، وليس كل ما قَالَ الناس إنه جهاد هو جهاد، فينبغي عَلَىٰ طلاب العِلم أن يتفقهوا في هٰذَا المقصد؛ مقصد الجهاد في سبيل الله بمعناها العام ومعناها الخاص، وبشروطه وضوابطه حَتَّىٰ يتبين للناس ما هو الجهاد المشروع.

الآن بعض الناس كل ما وُجد قتال في أرض من أراضي المسلمين قالوا: حي عَلَىٰ الجهاد، وفضل الجهاد، بينما إذا نظرنا إِلَىٰ حقيقته نجد أنه ليس جهادًا، فمعرفة مقصد الجهاد، ومعنى الجهاد، وضوابط الجهاد من أعظم ما يكون للمسلم فائدة وعائدة، يعرف الحق ويجتنب الباطل.

إِلَىٰ غير ذلك من المقاصد العامة الكبرى للشريعة في القرآن الكريم، لكن الوقت لا يُسعف لطرحها كلها، ويكفي من القلادة ما أحاط بالعنق.

أسأل الله عَزَّ وَجَلَّ أن يُفقهنا في دينه، وأن يجعلنا من العاملين بشريعته الداعين إليها، وأن يُنير بصائرنا، وأن يكفينا شرور أنفسنا والشياطين، وأن يجعل هٰذَا المجلس خيرًا وبركةً علينا، وأن يُسعدنا به في الدنيا، ويسرنا به عند لقائه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، واللهُ تَعَالَىٰ أَعْلَى وَأَعْلَمُ.

وَصَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّد.